المقتطف

الجزء السادس من المجلد السادس والعشرين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠١ — الموافق ١٤ صفر سنة ١٣١٩

الكونت تولستوي الروسي

هذا عنوان مقالة نشرناها عن الكونت تولستوي في الجزء الرابع من المجلد الثاني عشر من المقتطف الصادر في غرة يناير سنة ١٨٨٨ لخصنا فيها خبر زيارة زاره اياها كاتب اميركي شهير اسمهُ جورج كنان . ولم يكن اسم تولستوي مشهوراً في هذه الديار فاوجزنا المقال على قدر الامكان لقلة من كان يعنى بهِ حينئذٍ . اما وقد كثر ذكرهُ الآن في التلغرافات

السياسية والصحف اليومية ولا سيما بعد ان حرمتهُ الكنيسة الروسية وخيف من استفحال الثورة في بلاد الروس بسببهِ فرأينا ان نعود الى حديث المستر كنان فنثبتهُ برمتهِ ونضيف اليهِ ما تتم بهِ الفائدة من اقوال كبار الكتاب حتى يرى القارئُ من هو الكونت تولستوي وكيف يعيش وكيف يفتكر لا سيما وان لهُ سلطة لا مثيل لها على عقول الملايين من شعوب الروس ولأنهُ يعد في الطبقة الاولى بين كتَّاب هذا العصر. قال المستر كنان:

زرت الكاتب الروسي الكونت ليو تولستوي في اواخر شهر يونيو سنة ١٨٨٦ عزمت على زيارتهِ قبل ذلك بنحو سنة من الزمان وانا في مناجم سيبيريا واعدًّا بذلك جمهورًا من مريديهِ الذين حُكم عليهم بالاشغال الشاقَّة مدى العمر في تلك المناجم. وكنت قد سُئلتُ ان احمل نسخةً من روايتهِ المعروفة "بالاعتراف" الى سيدة حُكم عليها بالاشغال الشاقة اثني عشرة سنة لذنب سياسي. والرواية ممنوعة من بلاد الروس والنسخة المشار اليها مخطوطة خطًّا ولا ادري كيف سلمت من عيون الرقباء ووصلت الى شرقي سيبيريا حيث أُئتمنتُ عليها. والمراقبة شديدة في بلاد الروس على الكتب الممنوعة فيفتش رجال الحكومة كل صندوق وسفط ومتاع فوصول هذه النسخة الى شرقي البلاد دليل قاطع على ان المراقبة لا تجدي نفعًا ولا تصدُّ الافكار الحرَّة عن الانتشار ما دامت النفوس متشوفة اليها وان الحكومة تعجز عن منع ما تأبى انتشارهُ حتى بين الذين في سجونها لان النسخة المشار اليها سارت في بلاد الروس خمسة آلاف ميل رغمًا عن انفها

اخذت هذه النسخة وفي اقل من ثلاثة اشهر تعرفت بالسيدة التي أُرسلت اليها وبغيرها من المنفيين الى سيبيريا وهم اما من معارف الكونت تولستوي واصدقائهِ او من الذين كانوا يكاتبونهُ. وقد رغبوا اليَّ كلهم ان ازورهُ بعد عودتي الى اوربا واصف لهُ احوالهم وما يعانيهِ المنفيون الى تلك الاصقاع الشاسعة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقَّة فيها لجرائم سياسية أُخذوا بها. وظهر لي انهم كانوا يحسبونهُ من المهتمين بامرهم القائلين بقولهم بناء على ما رأَوهُ من منع الحكومة لكتبهِ وحسبوا انهُ اذا وُصفت لهُ حالهم زاد جرأة على التنديد بالحكومة والضرب على يدها واثار افكار الجمهور عليها وانقلب من النصح والانذار الى التعيير والتهديد بل الى المقاومة الفعلية. لكنهم كانوا في خطاء مبين من هذا القبيل لانهم لو رأَوا كتبهُ الحديثة وطالعوها لعلموا انها انما حُرمت ومنعت لما فيها مما ينكرهُ عليهِ رجال الدين لا مما ينكرهُ عليهِ رجال السياسة. وان اساس معتقدهِ وفلسفتهِ ان لا يُقاوَم الشر بالشر. ولما طلبوا اليَّ ان اصف لهُ ما رأَيتهُ من سوء الادارة في سيبيريا وكيف يمتهن المنفيون فيها قصُّوا عليَّ قصة الصوم الذي يلجأُ اليهِ المنفيون احيانًا فيمتنعون عن الطعام الى ان يموتوا او يخفف رجال الحكومة عذابهم

واعطوني رسالة يوصف فيها قد حلّ باربع نساء من المنفيات الى سجن اركوتسك احداهنّ اخت العالم فورنتسوف وكلهنّ من المتعلمات المتهذبات وطلبوا مني ان احمل هذه الرسالة الى الكونت تولستوي ومن ثمّ عزمت على زيارته كما تقدّم

ومرّت الشهور قبلما تيسرت لي العودة الى موسكو فلما وصلتها بلغني ان الكونت غادرها ومضى الى املاكه قرب مدينة تولا حيث يصطاف فمضيت اليها ولما نزلت في محطة سكة الحديد ناديت سائق مركبة وقلتُ لهُ اتعرف الكونت تولستوي فتبسم وابرقت اسرتهُ وقال كيف لا اعرفهُ ومن لا يعرفهُ في هذا المكان وهو في يسنايا بوليانا الآن ولا يبعد بيتهُ عنا سوى خمسة عشر فرستاً (١)

فقلت لهُ وهل في يسنايا بوليانا فندق انزل فيهِ . فقال كلاّ ولكن مالك وللفندق لماذا لا تنزل عند الكونت فانهُ رجل بمطياف انيس المحضر يشتغل في ارضهِ مثل عامة الفلاحين ويسرّ بنزولك عليهِ ضيفاً

فحرت في امري لانني لم استسهل الذهاب اليهِ طالباً النزول في بيتهِ ولكنني لم اجدْ سبيلاً آخر فقلت هي الضرورة حكمتْ بذلك وللضرورات احكام

وركبت المركبة وكانت الساعة العاشرة وسار بي السائق وقد هبّ نسيم الصباح نعطّر الارجاء حتى اذا بلغنا قنّة رابية سواء المدينة اطلت على ما حولي من الاكام الخضرة والطرائح المحدقة بها وما يليها من الاودية والقرى المنتشرة فيها ولم ارَ في الارض سوراً ولا سياجاً يفصل بين الحقول وكانت الازهار منتشرة على جانبي الطريق من الاقحوان والشقيق والخردل البري وازهار النفل تعطر الهواء بارجها والفراش يتطاير بينها كانهُ سكر من رائحة اريها قبل ان يهتدي اليها . وهنا وهنالك رجال من الفلاحين جالسين على الارض يكسرون الحصى لرصف الطريق ونساء مشمرات الذيول راجعات من المدينة بما ابتعنهُ منها وقد وضعنهُ في اكياس على اكتافهنّ . ولما صرنا على نحو عشرة فرستات من تولا اذا نحن بمنظر تمتاز بهِ بلاد الروس على غيرها سربٌ من النساء جالسات الى جانب الطريق تحت شجرات باسقات يأكلنَ خبزهنّ الاسمر وقد اضرمنَ النار وصنعنَ الشاي اداماً وشراباً منعشاً لقواهنّ فلما وصلنا اليهنّ نهضنَ وتناولنَ عصيهنّ وربطنَ اباريق الشاي وفياجينهُ بمناطقهنّ ووضعنَ اكياسهنّ على اكتافهنّ ومشينَ امامنا وفي اقدامهنّ خفاف مصنوعة من العيدان وقد علا الغبار ثيابهنّ وهنّ قاصدات الزيارة الى دير تروا تسكاي على ٤٥ ميلاً من موسكو وقد قصدنهُ من بلاد شاسعة ولهنّ اسابيع يسرنَ ماشيات لا يخلعن ثيابهنّ ولا ينمنَ في فراش ولا يأكلنَ غير الطعام الخفيف بللهنّ

(١) الفرست الميل الروسي وهو ٣٥٠٠ قدم او نحو ثلثي الميل الانكليزي

المطر ويشوبهنّ الهجير الى ان يصلنّ الى الدير ويغفرن وجوههنّ بارضهِ ويشربنّ من ماء بئرهِ . وترى فرق الزوار في شهري يونيو ويوليو في كل بلاد الروس قاصدةً ديرًا من الاديرة او مزارًا من المزارات اوضاربة الى ما هو ابعد من ذلك الى بيت المقدس في بلاد الشام

واشتدَّ الحرُّ وكانت الطريق بيضاء فانعكس الوهج عنها وكاد يبهر عينيَّ وبينما انا افكر ان اسأل السائق عما اذا كنّا لا نزال بعيدين عن دار الكونت دار بالمركبة في طريق جانبي يمرّ في الحراج وقال " ناكونس ديخلي " اي عدنا وصلنا . فالتفت الى ما حولي وانا اتوقع ان ارى قصرًا فخيمًا يليق باشهر كتّاب الروس وباميرغني من امرائهم فلم ارَ الاَّ اكواخًا حقيرة على نحو ميل من الطريق فقلت لهُ اين دار الكونت فقال هناك في وسط الغاب ولا تستطيع ان تراها الاَّ حينما تصل اليها وهوذا باب الروض . فالتفتُّ واذا عمودان قديمان من الاجر وهما قائمتا الباب وعلى مقربة منهما اثار بركة قديمة ولا شيء آخر يدل على اننا بلغنا روضًا يخص رجلاً من الاغنياء . وكانت الاعشاب نامية تحت الاشجار دليل الاهمال . ولم نكد نسير مئتي متر حتى دارت بنا الطريق الى اليمين ووقفت المركبة بغتةً امام بيت سادج البناء ابيض الجدران فيهِ طبقتان تحيط بهِ الاشجار لا تراهُ اذا ابعدتَ عنهُ اكثر من ثلاثين او اربعين مترًا . ويصعب على المرء ان يتصوَّر بيتًا ابسط منهُ لا شرفات لهُ ولا اروقة ولا افاريز ولا شيءٌ من زخارف البناء . بابهُ بسيط جدًّا لم احسبهُ مدخل البيت بل بابًا سريًّا لصغرهِ فلم اجسر على قرعهِ لئلاَّ يكون باب المطبخ وامامهُ ساحة ممهَّدة للعب والى جانبها مقعد عليهِ سيدة جالسة تقرأُ وعلى رأسها برنيطة كبيرة كالمظلة تقيها من الشمس فمضيت اليها وبدأت بالاعتذار لانني اقلقتها ثم سألتها عما اذا كان الكونت في البيت فقالت اظنهُ في البيت وطلبت مني ان اتبعها فدخلت من هذا الباب الى غرفة صغيرة واوعزت اليَّ ان اجلس فيها ودارت الى باب آخر ونادت الكونت باللغة الانكليزية قائلة أأنتَ هنا فاجابها نعم . فقالت هنا خواجه (جنتلمان) يريد ان يراك . قالت ذلك وخرجت وعادت الى الساحة وجلست حيث كانت جالسة . وللحال سمعت صوت كرسي يحرَّك ونقدُّم الكونت ووقف في الباب بين غرفتهِ والغرفة التي كنت فيها . وقد سمعت كثيرًا عن انهُ يلبس على غاية السذاجة ورأيت صورًا فوتوغرافية من صورهِ وهو بثياب الفلاحين ولذلك لم اكن انتظر ان ارى رجلاً بثياب فاخرة الاَّ اني لم انتظر ان اراهُ في الحالة التي رأيتها فيها حينئذٍ

كان الحرُّ شديدًا في ذلك اليوم والظاهر انهُ عاد حينئذٍ من الحقول والعمل فيها بثيابهِ التي قابلني بها وهي سراويل واسع مما يلبسهُ فلاَّحو الروس وقميص ابيض لا طوق لهُ وهذا كل ما كان على بدنهِ . وهو طويل القامة غليظ العضل لوَّحت الشمس وجههُ وطال شعرهُ ففرقهُ

من بين عينيهِ كالنساء . تدلُّ هيئتهُ على القوة والاستقلال والاعتماد على النفس ولا يخطر على وجههِ انهُ من رجال العلم والفلسفة بل انهُ من رجال الاعمال اهل العزيمة والحزم الذين يقتحمون المخاطر و يخوضون الاهوال غير محسبين للعواقب . عيناهُ صغيرتان براقتان تحت حاجبين كثين وانفهُ كبير واسع المنخرين وشفتاهُ غليظتان منطبقتان . وما يظهر من وجههِ وذقنهِ تحت لحيتهِ الطويلة يدل على القوَّة والرجولية

قال تولستوي في احد كتبهِ ان امهُ اضطرت وهو في السادسة من عمرهِ ان تعترف بانهُ قبيح المنظر ثم قال " خطر ببالي حينئذٍ ان الشخص الذي انفهُ واسع مثل انفي وشفتاهُ غليظتان مثل شفتيَّ وعيناهُ صغيرتان مثل عينيَّ لا لذَّة لهُ في الحياة وطلبتُ من الله ان يصنع اعجوبةً ويجعلني جميل المنظر فأعطي كل ما املكهُ وما يمكن ان املكهُ بدال وجه جميل " . ولكن في وجههِ كما بان لي حينئذٍ شيئًا افضل واسمى من الحسن الظاهر وهو القوة الادبية والعقلية والطبيعية فان هذه القوى الثلاث تلوح عليهِ مرتسمةً فيهِ

وقف في الباب امامي كانهُ لم ينتظر ان يرى رجلاً غريبًا ولكن لم يطل وقوفهُ بل تقدَّم اليَّ حالاً ويداهُ مبسوطتان ولم اكد اخبرهُ من انا حتى رحب بي وبشَّ في وجهي وهش وقال انهُ مسرور جدًّا بزيارتي لهُ ولاسيما لانني اميركي. فقلت لهُ اني زرتهُ انجازًا لوعد وعدتُ بهِ بعض اصدقائهِ ومريديهِ في سيبيريا ورغبة في مشاهدة الرجل الذي طالعتُ كتبهُ فسررت بها جدًّا

فقال واي الكتب طالعت من كتبي . فقلت كل رواياتك كالحرب والسلم وحنة كرانينا والقوزاق. فقال أرأيت شيئًا من كتبي الحديثة. فقلت كلاَّ لانها نشرت بعد ذهابي الى سيبيريا. فقال اذًا لا تعرفني ولكن لا بأس ساعرفك بنفسي

وحينئذٍ دخل سائق المركبة الذي جاء بي دخل بثيابهِ الرثة فلما وقعت عين الكونت عليهِ نهض وصافحهُ كما صافحني كانهُ من اعز اصدقائهِ وسألهُ مسائل شتى عن اهلهِ وعن مدينة تولا وما فيها من الاخبار . ولم اكن عارفًا حينئذٍ بآرائهِ الاجتماعية فاستغربت جدًّا ان ارى اميرًا روسيًّا غنيًّا وكاتبًا من اشهر كتَّاب الارض يرحب بسائق مسكين ويحادثهُ كانهُ احد اصدقائهِ لكن هذا الحادث كان بداءةَ حوادث كثيرة ادهشتني وجعلت زيارتي لهُ مما لا يبرح تذكارهُ من ذهني . وسألهُ السائق ايضًا عن سلامة الكونتس زوجتهِ وسلامة اولادهِ وانصرف فالتفت اليَّ بعد انصرافهِ وطلب اليَّ ان اعذرهُ لحظة ثم دخل الغرفة التي خرج منها

والغرفة التي كنت فيها صغيرة حائطان من حيطانها الاربعة ابيضان مشيدان بالجبس وفي الحائط الثالث فرن يغطيهِ الاجر المدهون والرابع حاجز من الخشب الابيض يفصل بينها

وبين غرفة الكونت وفيهِ الباب الذي خرج منهُ وليس فيها سوى ثلاثة كراسي ومعقد قديم مغطى بالجلد ومائدة صغيرة لا غطاء عليها وفي الحائط ثلاثة قرون من قرون الايائل على احدها برنيطة وقميص ابيض وفي زاوية وراء المعقد تمثال نصفي من المرمر وفي الغرفة ايضاً صورتان لدكنس وشكسبير من الصور المطبوعة طبعاً فليس فيها شيء من دلائل الثروة

وعاد الكونت قبلما وسعني الوقت لامعن نظري في ما حولي وهو يتمطق بمنطقة سوداء فوق رداء رمادي ارتدى بهِ حينئذٍ وجلس اليَّ وجعلَ يسألني عن سياحتي في سيبيريا فاخذت اصف لهُ حال الولاة في تلك البلاد وما يقاسيهِ المنفيون اليها من الشدائد فاصغى اليَّ ولكنهُ لم يبدِ الاستغراب مما كنت اقصهُ عليهِ كانهُ اعتاد سماع امثالهِ بل حدثني هو ايضاً بمثل الاحاديث التي قصصتها عليهِ مما يدل على انهُ كان عارفاً بما يجري في سيبيريا من افعال الظلم والجور والقسوة البربرية وقد ارتأى فيها رأياً لا يحول عنهُ فسألتهُ عما اذا كان لا يستحل مقاومة مثل هذه المظالم

فقال ان ذلك يتوقف على ما تعني بالمقاومة فاذا عنيت بها المقاومة الادبية مثل الحث على الرفق بالرعايا واظهار عاقبة الجور فهذه المقاومة محللة عندي واذا عنيت بالمقاومة اخذ الامور بالشدة والعنف اي مقاومة الشر بالشر فهذا ليس من رأيي في حال من الاحوال

ثم ابان ما يرتئيهِ من واجبات الانسان كعضو من اعضاء المجتمع الانساني على ما ذكرها في كتابهِ المعنون "ديانتي" وفي غيرهِ من الكتب والرسائل التي الفها ونشرها حديثاً. واسهب في الكلام على ان الشر لا يقاوم بالشر وكان كلامهُ فصيحاً بليغاً وحجتهُ واضحة دامغة وقال اننا اذا استعملنا العنف لمقاومة الظلم لم نستفد شيئاً بل زدنا المظالم لان العنف نفسهُ نوع من الظلم وهؤلاء المنفون الذين ذكرتهم لي قد قاوموا الشر بالشر فكانت نتيجة مقاومتهم الفشل واراقة الدماء واتساع نطاق الشر والبغض والشقاء فلم تزل الشرور التي قصدوا ازالتها بل اضيفت اليها شرور اخرى لم تكن موجودة وما هذا بالسبيل لانتشار ملكوت الله في الارض

ولا اتذكر الآن كل الادلة والحجج التي ذكرها وعزز بها رأيهُ ولكنني اتذكر جيداً انهُ كان يكلمني ببلاغة نادرة المثال واقوال تدل على اقتناع قائلها بها فاثَّر ذلك في نفسي تأثيراً عميقاً . ولم تكن هذه الآراء جديدة عندي بل قد اعتدت سماعها واستماع ادلة اصحابها في بطرس برج وموسكو وتفر وقازان ولكنها لم تؤثر في نفسي كما اثَّرت حينئذٍ حينما فاه بها وايدها بكل دلائل الاقناع وكان وجههُ وعيناهُ اكبر مؤيد لها

واصغيت الى كلامهِ مدةً من غير اعتراض واخيراً اردت ان اتخلص من سلطة منطقهِ فاخذت اسألهُ مسائل تضطرهُ الى التخصيص بعد هذا التعميم فانهُ يسهل على المرء ان يقول

بنوع عام لا تقاوموا الشر بالشر ولكن اذا قلتَ لهُ ما قولكَ لو رأيت رجلاً مجرماً على امك والسكين في يدهِ ويكاد يذبحها بها أكنت تتركهُ لكي لا تقاوم الشر بالشر لغيرِ رأيهُ او نوعهُ اما الكونت فلم يغير رأيهُ بل بقي يقول قولاً واحداً . وقصصتُ عليهِ قصصاً كثيرة مما يلغني عن افعال الجور والقسوة والتوحُّش في سيبيريا وكنت اقول لهُ في آخر كل قصة لو شاهدتَ هذا الامر بنفسك ايها الكونت اما كنت تقاومهُ بالعنف فكان يجيب كلاً . فقلتُ لهُ لو رأيتَ لصاً عابداً الى قتل رجل بريء ولم ترَ سبيلا لخلاص الرجل الا بقتل اللص أفما كنت تقتلهُ . فقال لو رأيت دباً هاجماً على رجل لافترسهِ لما تأخرت لحظة عن قتل الدب واما الانسان فلا يحلُّ لي قتلهُ . وحينئذٍ حضرتني القصة الآتية وهي ليست افظع من غيرها من القصص التي سردتها لهُ ولكن فيها ما يثير الشهامة والنخوة فقلت لهُ

منذ اربع سنوات اتُّهمت فتاة روسية بانها اشتركت في ثورة على الدولة وكانت من المتعلمات المتهذبات العائشات بالراحة والترفُّه . فألقي القبض عليها وطُرحت في السجن سنة من الزمان ثم حُكم عليها بالنفي فقيدت مع كثيرين من المحكوم عليهم بالنفي رجالاً ونساء الى شرقي سيبيريا . وانت تعلم مقدار ما قاستهُ مدة سفرها في مركبة مشحونة بالهوام والاقذار ومعها نفر من الجند وهي مضطرة ان تقضي حاجات الطبيعة على مرأى منهم يوماً بعد يوم وشهراً بعد آخر . ولما بلغوا بها مدينة كراسنويارسك طلب منها والي المدينة ان تخلع ثيابها وتلبس ثياب المجرمين فابت بناء على ان المنفيين لاسباب سياسية لا يُجبرون على لبس ثياب المجرمين والاَّ لكانت أُجبرت على لبس هذه الثياب من بداءة سفرها من موسكو . فابى الوالي الاَّ ان تخلع ثيابها وتلبس ثياب المجرمين واصرَّت هي على الرفض لاسباب لا اعلمها ولكن يهمني ان ليس لها سبب آخر الاَّ قذارة تلك الثياب وما فيها من القمل لكفى بها سبباً لرفضها فامر الوالي الجنود ان يجردوها من ثيابها غصباً . فجعل الجنود يجردونها وهي تمانعهم وتنادي وتستغيث ولا مجيب ولا مغيث حتى تجرَّح بدنها وتضرَّجت بالدماء وفي الآخر تغلبوا عليها وجردوها من ثيابها كلها والبسوها ثوب المجرمين . فهب ايها الكونت انك كنت في ذلك الحضر وهذه الفتاة العفيفة الطاهرة تبكي وتستغيث بك وتطرح نفسها على قدميك والجنود القساة يجردونها من ثيابها بالقوة والعنف حتى وقفت بينهم عارية لا يغطي بدنها غير دمها ودموعها بلْ هَبْ أنها ابنتك وقد عوملت هذه المعاملة الفظيعة أفما كنت تغيثها ولو اضطررت الى استعمال السلاح

فسكت والدموع ملء عينيهِ كأنهُ يرى تلك الفتاة تبكي وتستغيث بهِ ولا قدرة لهُ على اغاثتها . ثم قال أتعلم يقيناً ان هذه الحادثة حدثت كما رويتها لي . فقلت انني لم اشاهدها

لحيني ولكنني سمعت وصفها من شاهدين عدلين من الذين شاهدوها . فصمت برهةً ثم قال وفي هذه الحال ايضاً لا ارى وجهاً لاستعمال القوة . هب ان الوالي الذي امر بتجريد هذه الفتاة شرس الطباع فاسد الاخلاق أفلا ترجح انهُ كان يظن انهُ عاملٌ بامر الحكومة المكلف بطاعتها فاذا عارضتهُ في عملهِ فانك تقيم نفسك حكماً عليهِ واذا قاومتهُ بالقوة فانك تزيد الشرَّ شرًّا . ثم انك لا تفلح في مقاومتك ما لم تقاوم الجنود وهؤلاء مأمورون غير آمرين وليس في وسعهم مخالفة ما أُمروا بهِ ولا تفلح في مقاومتهم ما لم تقتل اثنين او ثلاثة منهم او تجرحهم جراحاً تمنعهم من اجراء ما أُمروا بهِ . أفمن العدل ان تقتل او تجرح هؤلاء الجنود وهم وحدهم الابرياء بين كل المشتركين في هذا المنكر . ثم هب انك قتلت اثنين او ثلاثة من الجنود فانك لا تنجي الفتاة اذ لا بدَّ من ان يتكاثر الجنود ويجردوها من ثيابها ولكنك تكون قد وسَّعت نطاق العداوة والشقاء فان لكل واحد من الجنود الذين تقتلهم عائلةً تتوقف معيشتها عليهِ فيصيبها من الضر والبلاء بقتلك لهُ ما لا يقدَّر وصفهُ فيكثر الضر بفعلك ويعم اشخاصاً كثيرين بعد ان كان محصوراً في شخص واحد فليس هذا بالسبيل لانتشار السلام والوئام في الدنيا

وحينئذٍ اتضح لي كيف يعزّ رأيهُ فلم اعد اجادلهُ فيهِ ولو كنت اعلم فسادهُ من وجه اجتماعي . ودُعينا الى الطعام فصعدنا الى المائدة وهي في غرفة واسعة في الدور الثاني وهذا الدور ساذج ايضاً في بنائهِ واثاثهِ كالدور الاسفل ارضهُ عارية لا شيءَ عليها واثاثهُ قديم ساذج وعلى كواهُ ستائر بيضاء وعلى جدرانهِ قليل من الصور الزيتية لعلها صور اسلافهِ الذين عاشوا في القرن الماضي

ولقيت على المائدة عائلة الكونت زوجتهُ وهي امرأة مهيبة الطلعة سوداء العينين والشعر تدلُّ هيئتها على انها كانت في صباها من الجميلات وابنهُ البكر وقد تمَّ دروسهُ حديثاً في احدى مدارس روسيا الجامعة وابنتهُ الكبرى وهي في نحو العشرين من عمرها وابنتين اخريين من اولاد اخيهِ واربعة اولاد آخرين . وكان هناك شاب بثياب مزخرفة من ثياب الفلاحين كأنهُ اراد ان يتمثل بالكونت في لبس ثيابهم وسيدتان متوسطتا السن لعلها من صديقات الكونت المتشيعات لفلسفتهِ . فجلسنا نأكل ونتفكه بالحديث الطيب وكان الكونت اكثرنا جذلاً ولما قمنا عن المائدة امسك منشفةً مطرَّزة وقال انها التهُ هديةً من احدى نساء الفلاحين وانهُ يريد ان يبيعها بالمزاد ويعطيها ثمنها لانها فقيرة جدًّا فاخذنا نتزايد في ثمنها ونحن نضحك واخيراً قصَّر الجميع في المزايدة الاَّ ابنهُ وانا فابلغتها ريالين فقال الكونت هذا غاية ما تساويهِ ولذلك بعتكها فاعترض ابنهُ عليهِ وطلب ان يستمرَّ المزاد عسى الثمن يرتفع كثيراً فابى قائلاً ان المنشفة لهُ وله ان يبيعها بالثمن الذي يرضاهُ فاظهر ابنهُ انهُ قبل ولو على غير رضاهُ وانفضَّ الجمع فرحين ضاحكين . ستأتي البقية